

## الطيرُ الشَّارِدُ

[قِصَّةُ طَائِرٍ هَرَبَ بِقُيُودِهِ مِنْ قَفَصِهِ الذَّهَبِيِّ]

فِي وَادِي الظَّلَامِ الَّذِي يَطْفَحُ بِالهُولِ وَتَفْرُّ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً مِنْ جَحِيمِهِ،.. وَفِي وَسَطِ الْعُيُومِ الثَّقِيلَةِ تَحْتَ ثِقَلِ خَطْوِ هَوْدَجِ اللَّيْلِ الْأَسْوَدِ الزَّاحِفِ، وَالْعَوَاصِفِ الْمُتَمَرِّدَةِ فِي بَرْدِ شِتَاءِ الصَّبَابِ وَالثَّلُوجِ، وَالهُوَّةِ الْمُتَسَعِّةِ السَّحِيقَةِ،.. وَالْأَرْضِ الَّتِي تَطْوِي صَحَائِفَ أَسْلَافِهَا وَتُعِيدُهُمْ أَجَنَّةً مَخْشُوقَةً فِي رَحِمِهَا.. وَأَشْجَارِ الْعَابَةِ السَّامِقَةِ الَّتِي تَجَنُّ أَعْصَانًا تَدَلَّتْ فِي فَرَاحٍ بَاهِتِ الصُّفْرَةِ وَحُضْرَةِ غَامِضَةٍ وَيَنَابِيعِ غَائِرَةٍ مَاتَ فِيهَا الصَّدَى وَسُجِّيَ عَلَيَّ حَفَافِيهَا مَيْتُ الزَّهْرِ الَّذِي غَاضَ أَرِيحُهُ؛ فَمَا إِنْ تَبَسَّمَتْ أَكْمَامُهُ -تَعْرُهَا الْأَحْلَامُ- حَتَّى عَصَفَ بِهَا الرِّيحُ فَهَوَتْ إِلَيَّ صَدْرَ التُّرَابِ،.. وَأَحْجَارَ وَهْيَاكِلَ صَخْرِيَّةٍ مُبَعَثَرَةٍ هُنَا وَهُنَاكَ مُتَخَرِّمَةِ الصَّحَائِفِ مِنَ الرِّيَّاحِ وَالْمَطَرِ..

فَتَتَبَعَّرُ فَوْضَى التَّضَارِيسِ الْبَكْرِ، وَتَتَنَاثَرُ الْأَشْيَاءُ بِعَفْوِيَّةٍ مَقْصُودَةٍ بِنِظَامٍ زُخْرُفِيٍّ طَبِيعِيٍّ عَجِيبٍ؛ مُشْكَلَةً قَوَالِبَ سِرِّيَالِيَّةٍ تُمَثِّلُ إِعْجَازًا فَنِّيًّا؛ يَحْسَبُهَا الْغُرُّ رُسُومًا عَبَثِيَّةً -يَصُبُّ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ مِنْ ذَاتِهِ أَوْ مِنْ خِيَالَاتِهِ وَأَوْهَامِهِ- تَفِيضُ بِالْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، تَرَسُّمُ حَرِيظَةً لِعَنَاكِبِ الْأَلْوَانِ الْبَاهِتَةِ، وَقَدْ قَحَطَتْ فِيهَا الْأَلْوَانُ؛ فَلَا تَرَى -إِنْ رَأَيْتَ- إِلَّا الْقَتَامَةَ قَدْ أَكَلَتْ كُلَّ الْأَلْوَانِ!.. فِي لَحْظَةٍ اخْتَلَطَ فِيهَا الزَّمَانُ بِالْمَكَانِ .. فَلَا زَمَانَ وَلَا مَكَانَ،

وَلَا سَمَاءَ وَلَا أَرْضَ؛ فَقَدْ اخْتَلَطَ الْكُلُّ بِالْقَتَامَةِ!!

وَكَالطَيْرِ الشَّارِدِ أَتَوْقُ إِلَى الْحُرِّيَّةِ وَأَنْشُدُهَا.. أَهْرُبُ مِنْ ذَهَبِ الْقَفْصِ  
وَالدَّفْعِ الْخَانِقِ وَحُمَى السَّرِيرِ وَلَيْنِ الْفِرَاشِ الْمُحْرِقَةِ.. وَلَكِنَّ سَلَّاسَلَ  
الْقَيْدِ فِي قَدَمَيَّ تَعُوقُ طَيْرَانِي نَحْوَ الْأَمَلِ الْمَنْشُودِ... ..



أَلْمِلْمُ نِتْفَ أَحْلَامِي الْمُبْعَثَرَةِ فِي أَفْقِ الْغُيُومِ لِأُسْقِطَهَا عَلَى شِظَايَا  
الْوَاقِعِ الْكَيْبِ.. ..



وَفِي تِلْكَ الْأَرْضِ الَّتِي تَلْبَسُ الْحِدَادَ، وَقَدْ نَزَلَ السَّيْلُ عَلَيْهَا يَجْرِفُ  
بُنْبَهَا الذَّأْوِي؛ أَسْقُطُ فِي بَرَكَ الْوَحْلِ وَطِينِهِ الْمَحْمِي فَوْقَ بُرْكَانٍ مَكْتُومٍ؛  
يُلْقِمُ فَمِي بِالطِّينِ وَالْمَاءِ وَالْحِجَارَةِ، وَأَمْسَيْتُ كِتْمَثَالٍ مِنْ مِلْحٍ يَذُوبُ فِي  
الْوَحْلِ!.. أَوْ كِتْمَثَالٍ مِنْ شَمْعٍ مَصْهُورٍ!.. وَسَقَطَ مَعِي فِي هَذَا الْوَحْلِ؛  
الْوَقْتُ بَعْدَ أَنْ فَرَّتِ اللَّحْظَاتُ الزُّبْقِيَّةُ مِنْ كَفِّي، وَتَفَلَّتَتْ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِي  
.. غَاصَتْ فِي الْوَحْلِ .. تَقَرَّحَتْ وَتَقَيَّحَتْ كَجَسَدِي .. يَرُكُضُ الْوَحْلُ فِي  
مَكَانِهِ وَلَا يُحَوِّلُنِي عَنْ مَكَانِي، يَلْفِظُنِي وَلَا يَتْرُكُنِي .. وَيَرُكُضُ الزَّمَانُ وَلَا  
حِرَاكَ!.. وَالرِّيحُ تُصَفِّرُ مِنْ حَوْلِي .. تُزْمَجِرُ .. تُهَدِّدُ وَتَتَوَعَّدُ.. وَاخْتَنَقَتْ  
الصَّرَخَاتُ الْمُلْتَاعَةُ فِي مَسَامِيٍّ،... وَيُزْهِقُ أَنْفَاسِي -فِي هَذَا الْوَحْلِ  
الْخَانِقِ- عَطْنُ الْجَيْفَةِ وَالْعَفْنُ الْمَطْمُورِ فِي بَرَكَ الْوَحْلِ وَعَصِيرِهِ  
وَالْغَسْلِينَ وَالْمَاءِ الْأَسِنِ وَزَنْخِ الزُّهْمَةِ مِنْ سِفَادِ الْأَرْضِ .. وَآهِ مِنْ خُنْقِ



أُحَاوِلُ أَنْ أُزْمَلَ فَجَائِعَ الْقَلْبِ بِالْأَمَالِ الْكِذَابِ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا  
 أَتْهَاوَى إِلَيَّ قَعْرَ الْحُزْنِ الْعَمِيقِ.. أَتَكْوَرُ عَلَيَّ نَفْسِي، وَأَرْجِعُ بِالْمَيِّ وَحُزْنِي  
 إِلَيَّ وَحُدَّتِي، وَعَلَيَّ كَاهِلِي جَبَلٌ مِنَ الْهُمُومِ؛ تَسِيلُ وَدِيَانُهُ دَمًا وَقَلَقًا  
 وَعَذَابًا .. وَقَدْ اعْتَقَلَ الْمَاضِي فِي فُوَهَةِ بُرْكَانٍ، وَاخْتَصَرَ الْمَاضِي فِي  
 كَلِمَةِ "كَانَ" .. أَقَلَّبُ صَفَحَاتِ كِتَابِ الْعُمْرِ الْمُتَشَابِهَةِ الْقَاحِلَةِ الْمَتْرُوكَةِ فِي  
 الشَّمْسِ وَالْمَطَرِ؛ ذَاكِرْتِي الْوَهْمُ وَقَدْ تَسَمَّ بِهَا عَقْلِي، وَأَحْلَامِي هَوَاءٌ؛  
 وَقَدْ أَحْرَقَهَا الْوَاقِعُ الْمَرِيرُ بِنَارِهِ بَعْدَ أَنْ وَطَأَ بِنَعْلِهِ الْحَدِيدِي الْمُسَخَّ  
 صَفَحَاتِ عُمْرِي،.. وَكُنْتُ قَدْ بَنَيْتُ مِنَ السَّرَابِ مُقَدَّسَاتِ سُرْعَانَ مَا تَهَاوَتْ  
 إِلَيَّ رُفَاتٍ!.. كَانَتْ ظِلَالًا وَرَاءَ الْعَنَمَةِ تَمُوءُ.. تَتَعَاطَمُ، وَلَكِنْ مَا إِنَّ أَشْرَقَتْ  
 عَلَيْهَا الشَّمْسُ تَضَاعَلَتْ وَانْمَحَتْ وَصَارَتْ سَرَابًا هَبَاءً!!

وَيَا لَتَفَاهَةَ مَا حَصَلَتْ بَعْدَ انْجِلَاءِ الْحَقَائِقِ! .. فَكَمْ حَدَوْتُ وَمَالِي  
 بَعِيرٌ، .. وَمَدَدْتُ الْقَوْسَ مِنْ غَيْرِ وَتَرٍ، ... وَالْيَوْمَ أَمْسَيْتُ أَتَجَشُّؤًا مِنْ غَيْرِ  
 شَبَعٍ!! .. وَكَمْ غَزَلْتُ الْمُحَالَاتِ مِنْ خُيُوطِ الْعَنْكَبُوتِ الْوَهْمِيَّةِ فِي دَرْبِ  
 عُمْرِي، وَرَسَمْتُ الْخَيَالَاتِ عَلَيَّ صَحَائِفِ عَقْلِي الْعَلِيلِ!..



وَالْيَوْمَ .. أَمْسَيْتُ مُتَهَدِّمَ الْبُنْيَانِ، مُتَنَاطِرَ اللَّبَنَاتِ، مُشَوِّهَ الْمَعَالِمِ ..  
 فَالْعَقْلُ خَوَاءٌ وَالْقَلْبُ هَوَاءٌ! أَنْدَوَّقُ الْحَسْرَةَ مِنْ ضَخَامَةِ الْوَهْمِ.  
 وَأَمْسَيْتُ أَرَى الْجَمَالَ فِي الْأَرْضِ الْقَاحِلَةِ .. وَالْأَوْرَاقِ الزَّائِلَةِ .. وَرِمَمِ

الموتى .. والأجداث المتفتحة وجماجم مفعورة الأفواه والأحداق! ...  
 فالرياض النضرة أمست مقبرة .. وحبّات المطر أمست قدائف في  
 وجهي وجسدي .. وماء النهر انقلب إلى لهيب نارٍ وشلالٍ دماءٍ ..  
 وسحابٌ دُخانِ اليأسِ تُحيطُ بي وتلفني من كلِّ جانبٍ ...  
 ومع ذلك .. أرئو نحو عمود الصباح ذي المنديل اللهيبي، وضوء  
 الشمس المتقد!

أغوصُ في هلاوسِ أحلامي وخيالاتي ... أبجرُ داخلَ ذاتي .. أنشُرُ  
 فيها أشرعتي المتهالكة التي تنفذُ منها الريحُ؛ فلا أجدُ إلا العيمَ ودجنةَ  
 الليلِ البهيمِ، وموجًا يتلاطمُ .. يصفعُ وجهي .. يمزقُ أشرعتي .. يرميني  
 إلى صخبِ القيعانِ .. أغوصُ في أعماقها .. أبحثُ عن كيانِي .. أبجرُ في  
 أمواجها المتلاطمة في مركبي الصغيرِ بلا شرعٍ ولا مجدافٍ .. تتقاذفني  
 الأمواجُ المتلاطمة .. تتلاعبُ بي وبالمركبِ أمواجٌ لا ترحمُ .. تتخبطني  
 وتتخبطها .. تُطيحُ بي وبالمركبِ .. أسقطُ في اليمِّ وتقلبُ المركبُ ..  
 أخبطُ في الماءِ خبطَ عشواءٍ من غيرِ خبرةٍ ولا تمرُّسٍ حتى أصلَ إليها ..  
 أصدُ علي المركبِ المقلوبة .. نكادُ نعوصُ في اليمِّ معًا .. نضعفي  
 الأمواجُ، تُطيحُ بي .. أسقطُ مرةً أُخرى في اليمِّ .. وتطيحُ الأمواجُ  
 بالمركبِ .. ترفعها في الهواءِ .. تسقطُ علي سطحِ الماءِ -ويا للعجب-  
 معتدلةً علي بطنها!! .. أخبطُ في الماءِ حتى أصلَ إليها .. أمسكُ بها ..  
 أتشبثُ .. ترفعني الأمواجُ .. أفضزُ علي ظهرها، و.. أعاودُ الإبحارَ من

جَدِيدٌ، وَيَزْدَهْرُ فِي النَّفْسِ أَمَلٌ جَدِيدٌ سُرْعَانَ مَا يَتَهَاوَى إِلَيَّ قَاعِ  
سَحِيقٍ! ...



عَوَاصِفٌ وَعَوَاطِفٌ فِي النَّفْسِ لَا تَرُكْدُ، وَالشُّعْلَةُ الْمُوجَّجَةُ فِي الْقَلْبِ  
لَا تَحْمَدُ.

مُسَافِرٌ أَبَدِيٌّ فِي دِمَائِي .. أَغْذُ السَّيْرَ إِلَيَّ مَحَطِّي النَّهَائِيَّةَ، وَلَكِنْ .. مَا  
تَجَاوَزْتُ حُدُودَ عُرُوقِي، وَعَدْتُ ... مِنْ حَيْثُ ابْتَدَأْتُ!!

وَكَمْ سِرْتُ -وَأَنَا لَا أَدْرِي- شَرِيدًا أَعْمَى فِي دَرْبِ التَّكْرَاتِ؛ أَجْرُ  
عَرَبَاتِ الْخَبِيَّاتِ، أَلْوِي أَعْنَاقَ الذُّلِّ عَلَيَّ شَتِيَّتِ مَاضٍ أَخْرَسَ نَهَبَتْ أَيَّامُهُ  
وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا اللَّعَنَاتُ .. وَتَسَلَّلُ آهَاتُ الْبُوحِ مِنَ الذَّاكِرَةِ كَمِسْمَارٍ  
يُدْمِي فِي الْعَقْلِ وَتَتَحَرَّشُ بِالتَّنْهِيدَاتِ الْعَتِيقَاتِ؛ عَلَيَّ مَاضِي الْأَسْرِ  
الْكَيْبِ، وَحُرِّيَّةٍ .. (التَّمَرُّغُ فِي الطَّيْنِ)!! وَ(أَحْلَاهُمَا مُرٌّ)!!!

وَنُهِتُ فِي فِرَاقِ صَدَى الصَّمْتِ الثَّقِيلِ .. يُطْبِقُ عَلَيَّ .. يَعْتَصِرْنِي ..  
يَجْعَلُنِي هَوَاءً .. يَتَسَرَّبُ فِي سِرْدَابِ الْمَحْوِ!!... بَدَلًا مِنْ أَنْ أَتَبَخَّرَ ..  
أَتَصَاعَدُ فِي الْهَوَاءِ .. أَصْبِحُ سَحَابَةً؛ أَدُورُ فِي الْبِلَادِ ... وَلَكِنْ هَيْهَاتَ!

أَتَقَاسَمُ الصَّمْتَ الْمُطْبَقَ مَعَ الطَّبِيعَةِ مِنْ حَوْلِي . الَّذِي لَا يُورِقُهُ  
هَمِّمَاتُ الْعَابِ . كَمَا أَتَقَاسَمُ مَعَهَا صَرِيرَ الرِّيَّاحِ؛ كَصَهِيلِ خَيْلٍ طَلِيقَةٍ فِي  
السَّبَاقِ تَاهَتْ فِيهِ النَّهَائِيَّةُ، وَحَوَافِرُ الْخَيْلِ عَلَيَّ الْأَرْضِ الْحَجْرِيَّةِ تُوَلِّدُ  
إِقْتَاعَاتٍ رَتِيبَةً، صَوْنَهَا يَطِنُ فِي الْأَرْضِ الْمُقِيمَةِ فِي النَّعَاسِ! ..

صَمْتُ يُزْمَجِرُ بِدَاخِلِي .. يَحْفَرُ التُّفُورَ فِي جُدْرَانِ ذَاتِي، يُشْعَلُ نَارًا  
فِي الْحَنَائَا، أَمَسَى الصَّمْتُ عُنْوَانَ الْحُزْنِ وَالْأَلَمِ! يُورِّقُنِي سُكُونُهُ الْمُرْعَبُ  
الْمُخْضَلُ بِدَمْعِ الْقُلُوبِ وَطَيْنِ الْفُؤَادِ؛ كَمَا يُورِّقُنِي السُّكُونُ الَّذِي يَلْفَنِي  
وَيَلْفُ الثِّيَةَ مِنْ حَوْلِي،.. أَنْتَظِرُ هُبُوبَ الْعَاصِفَةِ الْهَوَاجَاءِ!.. سَكُونُ  
كَالْوَجُومِ، وَصَوْتُ كَالنَّحِيبِ عَصَفَ بِهِ الْهَوْلُ فَأَمَاتَ الصَّدَى!



أُحِبُّ الْمَاءَ يَرُونِي لَا أَنْ أَعْرَقَ فِيهِ - بَعْدَ أَنْ أَسِنَ - عُرْبَانًا فِي بَرْدِ  
الْشَاءِ الْقَارِصِ، أَوْ أَنْ أَرْتَوِيَ مِنْ حُمُوضَةِ الْعَرَقِ .. وَالْمَطَرُ فَيُوضَّأُهُ قَاتِلَةٌ  
وَعَطَايَاهُ إِغْرَاقٌ، وَقَدْ أَمَسَى سَيْلًا يَجْرِي بِبَرَائِكِنِ الْجَحِيمِ!..

أَكْثِيرُ عَلَيَّ الظَّمَانَ الصَّدِي أَنْ يَتَوَهَّمَ الرَّيَّ فِي فَيَافِي الْبَيْدَاءِ؛ وَقَدْ  
أَمَسَيْتُ ظَامِنًا مَعَ غَرَقِي فِي الْمَاءِ!.. "فَكَمْ مِنْ عَطْشَانٍ فِي اللُّجَّةِ"؟

وَأُحِبُّ التُّرَابَ يَاوِينِي فِي لَيْلِ الصَّيْفِ لَا طِينًا أَنْعَرِسُ فِيهِ [وَلَا حَمًا  
مَسُونًا يَنْعَرِسُ فِيَّ] .. أَهْرَبُ مِنَ الطَّيْنِ، وَلَكِنْ .. أَسْتَرُوحُ رَائِحَةَ التُّرَابِ  
وَأَلْجَأُ إِلَى لِيُونَةِ دِتَارِهِ -وَيَا حَبْدًا- مَعَ نَعُومَةِ الرَّغَبِ<sup>(١)</sup> وَرَيْشِ الْأَوْهَامِ!  
وَأَبْنِي عَشًّا (وَكَمْ بَنِيتهُ؟! ) بِالْعُشْبِ وَمَيْتِ الزَّهْرِ؛ فَتَذَرُوهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ ..  
وَيَأْكُلُهُ الْمَطَرُ .. وَتَجْرِفُهُ السُّيُولُ! ...

(١) الزَّغَبُ: صِغَارُ الرَّيْشِ وَالشَّعْرِ وَلَيْثُهُ. الْوَاحِدَةُ: زَغْبَةٌ.

وَيَا لَهُ مِنْ تُرَابٍ أَصَمَّ فِيهِ الْوَدَاعَةُ، وَفِيهِ .. الْأَلَمُ!!

أُحِبُّ ضَوْءَ الشَّمْسِ بِأَلْوَانِهِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْأُرْجَوَانِيَّةِ وَالْحَمْرَاءِ؛ بَلْ  
بِأَلْوَانِ الطَّيْفِ وَدَرَجَاتِهِ... يُبَيِّرُ لِي الطَّرِيقَ وَيَكْشِفُ مَا دَقَّ وَمَا خَفِيَ ..  
تَظْهَرُ الْحَقَائِقُ وَتَفْتَضِحُ .. يَبْعَثُ الصِّيَاءَ وَالْحَيَاةَ، وَلَكِنْ .. تَحْتَرِقُ بِسَبَبِهِ  
أَوْرَاقُ الْأَشْجَارِ الْمُتَسَاقِطَةِ! .. وَخَلْفَ الضَّوِّ نُورًا وَنَارًا، فَأَخْشَى فِتْنَةَ النُّورِ  
وَعَبَسَهُ عَلَيَّ عَيْنِي الْكَلِيلَةَ وَإِحْرَاقَهُ لِجَسَدِي الْمَقْرُوحِ، وَأَخْشَى .. أَشْبَاحَ  
الظَّلَامِ الْخُرَافِيَّةِ وَكُهَانَهُ الَّتِي تُقَدِّسُ الْمَوْتَ!



أَضْدَادُ نَاهَتْ حُرُوفَهَا وَاخْتَلَطَتْ، فَتَشَابَهَتْ عَلَيَّ عَيْنِ كَلِيلَةَ، تُصَاوِلُ  
الْوَحْشَ الْكَلَامِيَّ الْمُدْجَجَ بِكُلِّ حُرُوفِ الْهَجَاءِ؛ تَرْسُخُ الْحُرُوفِ فِي  
ذَاكِرَةِ التُّرَابِ .. تَتَجَمَّعُ مِنْ حَوْلِي تَسْلُبِي ذَاتِي .. أَبْحَثُ فِيهَا عَنْ شِظَايَا  
أَحْلَامِي الْمُبْعَثَرَةِ، وَأَنْتَظِرُ لِحُظَّةَ زَوَالِي، .. أَتَخَبَّطُ فِي ضَبَابِ الْأَشْيَاءِ ..  
يَخْفَى عَلَيَّ كُنْهُ ذَاتِي .. تَتَصَارَعُ مَعِي كُلُّ الْأَضْدَادِ؛ صِلَاحٌ وَفُجُورٌ ..  
حِكْمَةٌ وَطَيْشٌ .. الْمُحْتَمُّ وَالْمُسْتَحِيلُ .. الصَّلَابَةُ وَاللِّينُ .. الْحَقِيقَةُ وَالْوَهْمُ  
.. الْوَاقِعُ وَالْخِيَالُ .. يَنْهَشُ كُلُّ شُعْبَةٍ مِنْ ذَاتِي، يَنْعَرِسُ كُلُّ ضِدِّ فِي  
شَرَائِينِي .. يَغْزُو دَمِي .. يَغْمِسُ أَصَابِعَهُ الطَّوِيلَةَ .. يَجْرِي نَحْوَ الْقَلْبِ ..  
تَصُدُّهُ كَرِيَاتُ دَمِي .. تَتَكَسَّرُ .. يَصِيرُ دَمًا أَسْوَدًا يَسْهُلُ التِّهَامُهُ، وَلَكِنْ ..  
تَتَعَاقَبُ مَوْجَاتُ أُخْرٍ تَلُو مَوْجَاتِ، وَالصَّرَاعُ لَا يَهْدَأُ!..

أَيْمَمٌ وَجْهِي الْمَعْرَفَ بِالطَّيْنِ اللَّازِبِ نَحْوَ الضَّوِّ الْأُرْجَوَانِيِّ الشَّاحِبِ

لَمَغِيبِ الشَّمْسِ؛ كَلَهَبِ مِدْفَاةٍ يَخْمَدُ فِي لَيْلَةٍ شَتْوِيَّةٍ قَارِسَةٍ الْبَرْدِ .. وَمَعَ شُحُوبِهِ أَتَحَاشَاهُ .. أَمْضَى مُنْكَسَ الرَّأْسِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ؛ فَلَا أُطِيقُ النَّظَرَ إِلَيْهِ لِعَبَشِ بَصْرِي مِنْ أَثَرِ الطِّينِ الْمُتَعَفِّنِ الْمَحْمِيِّ .. أَسْتَدِيرُهُ .. أَعُودُ إِلَيْهِ لِمَسِيسِ حَاجَتِي إِلَى الْحَقِيقَةِ .. (أَتْرَاحُ وَأَفْرَاحُ) .. وَكَأَثَرِ حَفْرَتِهِ الرِّيحُ وَالشَّمْسُ ثُمَّ انْطَمَرَ؛ أَزْدَادُ شَوْقًا لِلنُّورِ وَالصِّيَاءِ .. تَضَطَّرِبُ الْأَفْكَارُ وَتَتَلَعَّمُ الْخُطُوبَاتُ، .. وَغَاضَتْ ثِمَالَةٌ ضَوْءِ الْغُرُوبِ، وَ.. نُذِرُ الْأَحْتِفَالَاتِ الْجَنَائِزِيَّةِ تَقْتَرِبُ مِنَ الْأَفْكَارِ وَالْخُطُوبَاتِ الْمُلْتَاعَةِ! .. فَ"الْمَوْتُ صَدِيقٌ تَتَقَادَمُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الْمَوَاعِيدُ، أَشْعُرُ بِخُطُوبَتِهِ فِي رِيحِ اللَّيْلِ وَفَحْمَةِ الظُّلْمَةِ، وَآتَوْقَعُهُ زَائِرًا كُلَّمَا امْتَلَأَتْ قُطُوفُ الْمِحْنَةِ بِالْعَطَايَا وَثَقَلَ عَلَيَّ الْقَلْبُ الْفَرَحُ!"

وَتَهَاوَى إِلَيَّ الْمَغِيبُ مُنْمَمَاتٍ [مُزْخَرَفَاتٌ مُرَقَّشَاتٌ] مِنْ ذَهَبِ الشَّمْسِ بَعْدَ طَحْنِهَا بَيْنَ أَوْرَاقِ وَأَغْصَانِ الشَّجَرِ الْمُلْتَفِّ؛ تَنْثُرُهُ شَطَايَا عَلَيَّ أَرْضٍ مُصْفَرَّةٍ مِنْ بَقَايَا وَهَجِ الشَّمْسِ. وَيَنْسَجِبُ الضَّوُّ الشَّاحِبُ فِي الْأُفُقِ .. يَتَوَارَى .. يُعَانِقُ الظَّلَامَ الصُّخُورَ .. وَيَتَصَفَّحُ الْأُفُقَ بِالْحَدِيدِ؛ يُعْلِنُ أَنَّ اللَّعَّةَ الْمَسْمُوعَةَ وَالْمَرِيئَةَ سَتَكُونُ لُغَةً اللَّيْلِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ إِلَّا السَّوَادَ! وَأَشْبَاحُ الْخَوْفِ تَنْطَلِقُ فِي فِضَاءِ الظَّلَامِ الْمُخِيفِ الَّذِي يَنْتَفِضُ سَوَادًا مِنْ حَوْلِي تُعْلِنُ السِّيَادَةَ لِأَشْبَاحِ الظَّلَامِ، وَأَنَّ هَذَا أَوَانُ احْتِرَاقِ الشُّمُوعِ الصَّائِعَةِ! .. تَسْرِي الظُّلْمَةُ مِنْ حَوْلِي، وَقَدْ احْتَلَّتْ عَيْنِي، وَمَأْنَتْ بَعَيْنِي مَنَارَاتُ الطَّرِيقِ، .. وَتَشْرَبَتْ الْأَرْضُ الْقَاسِيَةَ الظُّلْمَةَ .. تَرُسُّ مِنْ حَوْلِي

أُخْطَبُوطًا يَتَمَطَّى .. يَحْتَوِينِي بِأَذْرَعِهِ الْعَنْكَبُوتِيَّةَ، وَيَفْغُرُ أَشْدَاقًا رَهِيْبَةً، ..  
 تَنْسَابُ الظُّلْمَةُ بِقَتَامَتِهَا فِي كِيَانِي .. تَخْتَرِقُ الْقَلْبَ الْمَهْوُكَ الْمُنْتَقَلَ بِالْأَلَامِ  
 .. تُعَشِّشُ فِي أَحَادِيدِ الْحُزَنِ الَّتِي شَقَّتْ فِي الْقَلْبِ، يَتَشَرَّبُهَا كَمَا تَشَرَّبْتُهَا  
 الْأَرْضُ مِنْ حَوْلِهِ .. وَفِي هَذَا الظَّلَامِ أُطَاعِنُ فِي يَأْسِ الْقَهْرِ وَالذُّلِّ  
 وَالْعَارِ!..

تَتَلَاخَقُ انْفِجَارَاتُ بُرْكَانِ صَدْرِي، وَبِدَاخِلِي حَدِيدٌ مَصْهُورٌ وَتَلْجُ ..  
 تَتَعَالَى دَقَّاتُ الصَّدْرِ .. تَتَسَارَعُ كَمَا تَتَسَارَعُ دَقَّاتُ سَاعَةِ الْعُمْرِ الْقَصِيرِ! ..  
 يَتَرَنَّحُ الْجَسَدُ .. يَتَخَبَّطُ فِي كَوَايِسِ الظَّلَامِ وَغِيْلَانِهِ<sup>(١)</sup> الْوَحْشِيَّةِ وَأَشْبَاحِهِ  
 الْخُرَافِيَّةِ .. تَجْلِدُنِي بِأَذْنَائِهَا الْوَهْمِيَّةِ .. يَنْهَاوِي الْجَسَدُ الْمَهْوُكَ .. تَتَعَثَّرُ  
 فِي الْأَشْيَاءِ الْمُبْعَثَرَةِ .. يَتَلَاطَمُ وَجْهِي بَيْنَ الشَّجَرِ وَجَلَامِيدِ [صُخُورِ]  
 الْحَجَرِ وَطِينِ الطَّرِيقِ اللَّازِبِ وَالْحَمَاءِ الْمَسُونِ، وَغُدْرَانِ غَادِرَةٍ غَارَ مَاؤُهَا  
 وَمَا بَقِيَ إِلَّا الرَّمْلُ النَّاعِمُ؛ كَحِيَّةٍ رَقَطَاءَ تَبْلَعُ الْأَثَرَ!..

آه! لَوْ كُنْتُ صَبْرًا مَسْمُومَ الْأَشْوَاكِ؛ لَطَعَنْتُ الْآنَ لِحِظَاتِ الْقَهْرِ!  
 تَنْعَرِسُ الْأَشْوَاكُ وَخَنَاجِرُ ذَوَائِبِ<sup>(٢)</sup> الْأَحْجَارِ الدَّائِمِيَّةِ فِي قَلْبِي؛  
 فَيَدْمِي وَتَتَمَرَّقُ الْأَجْنِحَةُ مِئِي وَالْأَقْدَامُ .. أَكَايِدُ تَحْتَ أَنْقَاضِي الدَّائِمِيَّةِ ..

(١) فِي زَعْمِ الْعَرَبِ: أَنَّ الْغِيْلَانَ هِيَ الشَّيَاطِينُ الَّتِي تَظْهَرُ لِلنَّاسِ فِي الْفَلَاقَةِ فَتَتَلَوَّنُ هُمْ فِي  
 صُورِ شَتَّى وَتَعُوْلُهُمْ؛ أَي: تُضَلِّلُهُمْ وَتُهْلِكُهُمْ.

(٢) مُفْرَدُهَا: ذَوَابَّةٌ؛ وَهِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: أَعْلَاهُ.

وَأَنَا الَّذِي لَمْ يَعلُقْ بِي -يَوْمًا- عُبارٌ أَتَقَلَّبُ عَلَيَّ جَمْرُ الطِّينِ فِي جَحِيمِ  
مُسْتَقَعِ القِمَامَةِ وَعُصَارَةِ الرَّمَمِ وَالْمَوَاتِ القَدِيمِ.. وَتَحْتَ مِياهِهِ جَمْرٌ  
يَشْتَعِلُ، وَبَيْنَ قِمَامَتِهَا آلافُ العَقَارِبِ وَالْأَفَاعِي وَالْحَيَاتِ الرُّقْطِ!.. يَنْتابِنِي  
العَنَيَانُ مِنْ فَرْطِ مَا التَّهَمْتُ مِنْ نَجَاسَاتِ الوَحْلِ وَعَفْنِهِ .. أَمْسَيْتُ بِيَدِ  
الحُزْنِ وَالْأَسَى حَرْفًا لِلذُّلِّ يَكْتُبُهُ عَلَيَّ الأَوْحَالِ مُمْتَدًّا طَوِيلًا يَكْتُبُ بِهِ  
الْهَيَايَاتِ ...

أَبْكِي بَكَاءَ العَرِيبِ الوَحِيدِ الشَّرِيدِ الَّذِي تُطَارِدُهُ حَيُولُ اليَأْسِ بَلْ  
تُحَاصِرُهُ، فَجَرَى دَمْعِي سَخِيًّا هَتُونًا، (وَقَدْ انْبَجَسَ المَاءُ مِنْ جَسَدِي  
وَالدَّمْعُ مِنْ مَاقِيٍّ)، تَشْرَبُ الأَرْضُ كُؤُوسًا مِنْ دَمْعِي؛ تَنْبُتُ فِيهَا بَرَاعِمُ  
عُشْبٍ أَخْضَرٍ، وَتَتَدَاوَى جِرَاحَاتِي .. تَتَطَهَّرُ،.. تَكُونُ رِيًّا لِلزُّهُورِ، وَمِنْ  
أَخْضَارِ الجِرَاحِ يَنْبُتُ البَلْسَمُ<sup>(١)</sup> وَالْيَاسَمِينُ،..

أَعَاودُ القِيَامَ، وَأُحَاوِلُ المَسِيرَ .. تَتَرَنَّحُ حُطُوتِي فِي المَزَالِقِ وَأَشْبَاحِ  
الظَّلَامِ؛ فَاتَّخَبْتُ فِي الأَشْوَكَ مَرَّاتٍ أُخْرَى بِقَلْبِ كَسِيرٍ .. كُلُّ شَيْءٍ فِي  
دَمِي لَا يَتَحَدَّدُ وَلَا يَتَوَحَّدُ .. فَمَا أَشَقَّ حَيَاةَ ذِيحٍ يَتَخَبَّطُ فِي الطِّينِ! ..  
تَتَخَبَّطُ عَزِيمَتِي فِي الحَمَأِ المَسْنُونِ فَتَنْهَآوَى فِي الحُفْرِ .. وَأَمْسَى ظِلِّي  
عَلَيَّ الأَشْوَكَ حَامِدًا! .. فَيَا لَكَابَةَ المَنْظَرِ! .. وَيَا لِقَلْبِي الحَطِيمِ الكَسِيرِ

(٢) البَلْسَمُ: جِنْسُ شَجَرٍ مِنَ القَرْنِيَّاتِ الفَرَّاشِيَّةِ، يَسِيلُ مِنْ فُرُوعِهَا وَسُوقِهَا إِذَا جُرِحَتْ  
عُصَارَةٌ رَاتِحِيَّةٌ، تُسْتَعْمَلُ فِي الطَّبِّ. وَالْبَلْسَمُ: دَوَاءٌ تُضَمَّدُ بِهِ الجِرَاحَاتُ.

البأس! .. وَيَا لَطَى الْأَلَامِ!..

يَتَسَاقَطُ مِنْ وَجْهِ طِينٌ مُفْتَتٌ مِنْ عَفْنٍ؛ مِنْ جَرَاءِ جَمْرِ مُعَانِقَةٍ  
الطِّينِ اللَّازِبِ، وَالْتَفَتِ الْكَابَةُ حَوْلَ مَاقِي النَّازِفَةِ وَمَحْيَايَ الْكَالِحِ،  
وَتَعَرَّيْتُ مِنَ الرَّيْشِ فَاضْحَبْتُ الْعُوبَةَ لِهَوَامِ الْأَرْضِ!.. وَأَمْسَيْتُ عُنُونًا دَائِمِيًّا  
لِلْأَسَى وَالْحُزْنِ بَعْدَ أَنْ أَكَلَ الطِّينُ مِنْ جَسَدِي وَتَفَرَّحَ وَرَسَمَ تَضَارِيْسَهُ  
عَلَيَّ جِلْدِي؛ لَطَخَ زَرْقَاءُ وَسُودَاءُ مُدْمَاءُ عَلَيَّ مَسْخَ مُشَوِّهِ عُرْيَانًا إِلَّا مِنْ  
الطِّينِ الْعَتِيقِ، وَأَمْسَيْتُ شَبَحًا مَصْلُوبًا أَشْبَعْتُهُ الرِّيحُ جِلْدًا وَحَرَقًا .. تَنَفَّذُ  
فِي أَعْضَائِي الْمُتَهَالِكَةَ.. تُرَشِّقُ كَالْحَنَاجِرِ فِي شَرَايِينِي .. تَغْرُو دَمِي  
(الَّذِي لَمْ أَكُنْ قَدْ تَبَهَّتْ مِنْ قَبْلِ لِنْتِنِهِ فِي عُرُوقِي) .. حَفِظْتُ دُرُوبَ  
شَرَايِينِي .. تَزْهُو فِي عُرُوقِي الْوَاهِنَةَ .. تَشْفُ الضُّلُوعَ .. تَنْخَرُهَا .. تَجْرُ  
فِي جَسَدِي كَسَكِينِ صَدِيٍّ عَتِيقٍ، وَيُشْحَدُ عَلَيَّ ضِفَافِ جُرُوحِي الَّتِي لَا  
تُذَمِّلُ!.. يَنْحَلُّ جَسَدِي إِلَيَّ أَشْلَاءً تَعَبْتُ بِهَا الْفِرَّانُ وَالْهَوَامُ، وَ.. تَرْقُصُ  
فَوْقَ أَجْدَاثِ الْأَمَلِ!..

وَمِنْ خِلَالِ الْوَحْلِ وَالطِّينِ.. وَعَبَّرَ الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ؛ أَنْظَرُ فِي  
الظَّلَامِ إِلَيَّ الْأَفْقِ الْمُسْتَحِيلِ، وَتَتَقَادَفَنِي الْمُحَالَاتُ؛ مُحَالٌ وَرَاءَ مُحَالٍ،  
وَمَاتَتْ اللَّحْظَاتُ بَعْدَ أَنْ تَاهَ الْعَدُ فِي الظَّلَامِ، وَأَنْتَحَرَ الشُّعَاعُ فِي جَمْرِ  
الْحُفْرِ؛ فَجَتَمَ اللَّيْلُ وَتَحَجَّرَ بَعْدَ أَنْ أَفْرَخَ ظِلَامًا دَائِمًا وَهَوَاجِسَ رُعبٍ،  
وَتَجَمَّعَتْ كُلُّ دِيَاجِيرٍ وَجَحَافِلِ الظَّلَامِ، وَتَكَدَّسَتْ الْكُرْبَاتُ، وَتَعَاظَمَتْ  
الْعَتَمَاتُ، وَهَوَتْ قُصُورُ الْأَحْلَامِ، وَسَقَطَتْ كَوَرَقَةٍ صَفْرَاءَ هَشَّةٍ أَطَاحَ بِهَا  
قَصْفٌ مِنَ الرِّيحِ أَوْ إِعْصَارٍ،.. وَكَلَّمَا اقْتَرَبَتْ أَنْوَارُ الْفَجْرِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ

أَكْتَبْتَهَا التَّهَمَّتَهَا وَحُوشُ اللَّيْلِ... وَتَابَعَ اللَّيْلُ غَزْوَهُ، وَأَمْسَى الصُّبْحُ . تَحْتَ  
 أَكْدَاسِ الظُّلْمَةِ وَحَشِيَّةِ الكَثَافَةِ . أَبْعَدُ مِنَ المَنَايَا وَظِلُّ المَوْتِ أَقْرَبُ..  
 فَالْمَنَايَا تَتَرَصَّدُنِي خَلْفَ العُيُومِ، وَدُخَانُ العُمُرِ يَتَجَعَّدُ.. يَتَلَبَّدُ.. يَلْتَفُّ  
 دَوَائِرَ وَخُطُوطًا مُعَوَّجَةً!.. يَسِيرُ المَوْتُ بِتُوْدَةٍ .. يَحُطُّ عَصَاهُ .. يُحَطِّمُ  
 قُصُورَ المَرَايَا (شَظَايَا وَجْهِي المُبْعَثَرَةَ)!.. وَعَدْتُ أَخْشَى أَنْ يَحْرِقَنِي الفَجْرُ  
 بِنَارِ مَذَايِحِهِ وَيَحْرِقَ بِتَوَهُّجِهِ بَقِيَّةَ نَبْضِ عَليْلِ وَارْتِعَاشِ فِي عُرُوقِي  
 الوَاهِنَةِ!.. يَتَجَمَّدُ الخَوْفُ فِي حَلْقِي فِي أَعْلَى الصَّدْرِ .. يَخْنُقُ الأَمَلَ،  
 يَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَى القَلْبِ ... أَبْحَثُ عَنْ مَنْ يَفْدِينِي أَوْ مَنْ  
 يَنْتَشِلْنِي وَيَفِكُّ قَيْوُدِي، لَا مَنْ يَعْسِلُ وَجْهِي بِمَاءِ مُقَطَّرٍ، أَوْ يُحَاوِلُ  
 تَطْهِيرِي بِشَلَّالَاتِ كُلِّ النِّوَاعِيرِ المَنْصُوبَةِ فِي مَجَارِي الأَنْهَارِ!!

أَعْلَكَ ذِكْرِي رَعْدَ العَيْشِ وَلَيُونْتِهِ، وَتَتَابَعُ فِي عَقْلِي الصُّورُ، وَأَذْكَرُ  
 مَاضِي السَّدَاجَةِ وَالطُّهْرِ وَالبَّرَاءَةَ كَبَلْبَلِ صَدَاحِ بَيْنَ الجَدَاوِلِ وَالزُّهُورِ،  
 يَصِيغُ القَلْبُ مِنْهَا أَهَازِيحَ وَأَغَارِيدَ، يَشْدُو بِالأَمَلِ العَذْبِ، شَحْرُورًا فَوْقَ  
 الوُرُودِ وَالأَعْشَابِ، مُتَعَبِّيًا بِطُهْرِ الحَيَاةِ، مُرَدِّدًا شِعْرَ السَّعَادَةِ وَالسَّلَامِ، مُتَغَزِّلًا  
 بِالكَائِنَاتِ؛ السَّادِجِ مِنْهَا وَالخَطِيرِ.. هُنَيْهَاتٌ<sup>(١)</sup> كَانَ يَضْطَرِمُّ بِهَا الفُؤَادُ،  
 وَهَسَّهَاتٌ<sup>(٢)</sup> كَانَ يَخْفِقُ بِهَا؛ كُنْتُ أُحْيِكُهَا أَهْزُوجَةً<sup>(١)</sup> سَمَرٍ وَطَرَبٍ ..

(١) مُفْرَدُهَا: هُنَيْهَةٌ، وَهُنَيْهَةٌ؛ وَتَعْنِي: القَلِيلُ مِنَ الزَّمَانِ.

(٢) الهَسَّهَاتُ: الكَلَامُ الخَفِيُّ لَا يُفْهَمُ.

طَحَنَهَا الْأَلَمُ وَانْتَثَرَتْ شَطَايَا، فَمَا تَأْتِي الْأَحْلَامُ بِالصَّبَاحِ!.. وَكَمْ أَتَمَّنَى أَنْ  
تَعْتَلَ الذَّاكِرَةُ وَلَكِنَّهَا الْيَوْمَ حَدِيدٌ!

فِيَا لَهَا مِنْ ذِكْرِي حَيْنٍ مُحْتَرِقٍ بَعْدَ أَنْ تَقَطَّعَتْ أَمْرَاسُ الْأَمَالِ! وَأَنْتِ  
لِي الْآنَ رَنِيمُ النَّسِيمِ الْمُؤَنَسِ الْعَلِيلِ!.. فَمَا لَهُ وَشَجْوِي<sup>(٣)</sup> . الْيَوْمَ . بَعْدَ  
اصْطِلَائِي بِلِظَاهَا؟! وَشَوَاطُ مِنْ الْحُزْنِ الْمُسْتَعْرِ تَتَفَجَّرُ فِي أَحْشَائِي  
وَتُصَدِّعُ مَيِّ الصُّدُورِ؛ وَقَدْ حَضَبَ الْأَسَى وَالشَّقَاءُ الْمُرُّ صَوْتِي بِبِحَّةِ  
النَّحِيبِ كَلْفَحِ اللَّهَيْبِ! وَآهٍ .. مِنْ لَذَعِ اللَّهَيْبِ، وَمِنْ تَحْرِيكِ كَفِّ الْأَسَى  
لَأَوْتَارِ الْحَيْنِ وَالْأَشْوَاقِ فِي الْقَلْبِ الْحَزِينِ؛ وَقَدْ عَزَّ النَّسِيَانُ أَوْ حَتَّى  
التَّنَاسِي وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا السَّيْلُ وَالطَّيْنُ وَالصُّخُورُ!.. وَيَجُولُ الْحُزْنُ الْمُرُّ  
الْمُتَأَمِّرُ فِي فَمِي .. تَتَشَرَّبُهُ شَرَايِينِي .. يُسَافِرُ عَبْرَ ضُلُوعِي .. يُصْبِحُ هَيْكَلِي  
مُتَشَرَّبٌ وَمُتَشَبِّعٌ بِالْمَرَارَةِ ... وَجَمَدَتِ الْأَنَاشِيدُ بِصَدْرِي وَغَارَتِ الْأَغَارِيدُ،  
وَأَضَحَّتْ.. أَيْنَا وَشَجُونًا، وَأَضْحَى جَمْرُ الْحُزْنِ يَخْرُجُ فِي الْأَعْمَاقِ  
أَهَازِيحَ لِلْوَيْلِ وَالرُّعْبِ؛ مُلْتَاعًا لِمَصِيرِي الدَّاكِنِ الْقَاتِمِ وَالْأَمِّ الْوِحْدَةِ  
وَالْعُرْبَةِ وَصَرَawةِ الْفَرَاعِ!

كُنْتُ أَفْرَحُ وَأَمْرَحُ وَأُصَقِّقُ نَشْوَانًا مِنْ رُؤْيَةِ الْبُرُوقِ أَوْ سَمَاعِ الرُّعُودِ؛  
فَسْرَعَانَ مَا أَرَاهَا تَصُبُّ لَوْلَا يَتَنَاطَرُ .. أَوْ لِحِينًا مُدَابَبًا مُنْعَةً لِلنَّاطِرِينَ، تَتَلَقَّاهُ

(٣) هَزَجٌ؛ أَي: تَغَنَّى، فَهُوَ "هَزَجٌ"، وَ"الْهَزَجُ": كُلُّ صَوْتٍ فِيهِ تَرْتَمٌ خَفِيفٌ مُطْرِبٌ.

(٤) الشَّجْوُ: الهمُّ وَالْحُزْنُ.

الْأَرْضُ مُسْتَبْشِرَةٌ.. يَدَاعِبُهَا .. يَنْسَابُ كَطِفْلِ عَلِيٍّ صَدْرُهَا؛ فَيَنْسَابُ حَيْثُ  
شَاءَتْ حَيْثُ يَظُنُّ الْعِرُّ أَنَّهُ يَجْرِي حَيْثُ شَاءَ .. فَيَنْسَابُ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا،  
فَإِذَا هِيَ . الْيَوْمَ . تَصُبُّ عَلَيَّ مَهْلًا وَعَدَابًا وَتَجْرِي بِبَرَائِينِ الْجَحِيمِ  
الْمُسْتَعْرِ!

كُنْتُ أَحْلَمُ . كَحَبِيسٍ انْطَلَقَ مِنْ عِقَالِهِ . بَأَنَّ أَهْيَمَ فِي أَجْوَاذِ الْفَضَاءِ  
الْمَدِيدِ .. أَكْثَرُ مِنَ الْجَوْلَانِ؛ أَنْظُرُ الْبِلَادَ وَأَنْفَرَسُ الْعِبَادَ .. أَمْسَحُ السُّهُولَ  
وَالْوُدْيَانَ وَالْغَابَاتِ وَالْجِبَالَ وَالسُّطَانَ وَالْعَدِيرَ .. أُنَاجِي الْفَجْرَ وَالْعُرُوبَ ..  
أُلَاعِبُ الطَّيْرَ وَالنُّجُومَ . مُوشِحٌ بِأَحْلَامٍ وَرَدِيَّةٍ .. أُعَانِقُ الْوَرُودَ وَالنَّثْمَ الشَّجَرَ،  
أَتَسْمَعُ حَفِيفَ غُصْنٍ يَطْرَبُ لِنَجْوِ هَمْسِ النَّسِيمِ، أَوْ خَرِيرَ مَاءٍ يُعْرَدُ فِي  
طَبُورٍ أَوْ سَاقِيَّةٍ، أَوْ شَدْوٍ شَادٍ أَوْ حَتَّى .. خَفَقَ صَدْيَ،... أُعَانِقُ الْعَالَمَ  
الرَّحْبَ،... عُنْدِي شَوْقٌ وَشَعْفٌ بِالْحُرِّيَّةِ، وَلَكِنِّي أَخْشَى الْحِجَارَةَ وَالْحَقَارَةَ  
وَكُلَّ مَا يُدَنِّسُ الْأَمْشَاجَ وَالتَّرَائِبَ؛ فَلَا زِلْتُ أَحْيَا ذِكْرِي الْقَيْدَ!



حَاوَلْتُ أَنْ أَسْبِقَ يَوْمِي فَسَقَطَ غَدِي، وَتَقَبْتُ الْفَضَاءَ بِحُلْمِي فَسَقَطْتُ  
فِي بَرَكِ الْوَحْلِ!..

أَيْنَ لِي سُوَيْعَاتٌ مِنَ النَّوْمِ السَّخِيِّ؟ وَأَيْنَ السُّبَاتُ؟ وَكَيْفَ الثَّبَاتُ ..  
وَفِي الْمَضْجَعِ لَهَيْبٌ وَنَارٌ؟ .. وَمَنْعَصَاتُ الطَّيْنِ حَمِيمِيَّتُهَا اشْتِهَاءٌ أَنْ لَا  
تُفَارِقَ أَوْ تَغِيبَ؛ كَصَبَوَةِ الْعِشْقِ الْمُبْرَحِ .. وَشَائِحُ قُرْبِي عُرَاهَا لَا تَنْفَصِمُ وَلَا  
تَنْصَرِمُ .. رَحِمٌ تَشُدُّ خَطَايَا إِلَى الْأَرْضِ! وَمَا شِطَّةُ الرِّيحِ وَشِجَّةُ صَلَاةٍ بَيْنَ

الماءِ والطينِ .. بَيْنَ فِضَاءَاتِ الْأُفُقِ وَثَرَابِ الْأَرْضِ؛ كَمَا تَحْمِلُ حُبُوبَ  
اللَّقَاحِ بَيْنَ الشَّجَرِ؟!

فَكَيْفَ يُعْلَقُ فِي وَجْهِ مَرَاحِمِ الْحَمِ الْجَمِيلِ وَيُهْدَمُ الْأَمَلُ؟! ..  
وَسُهُوبُ النَّوْمِ تُدْمِي الذَّاكِرَةَ .. تُزْمَجِرُ فِي أُذُنِي كَصُوجٍ (١) تَدُقُّ -نَشَازًا-  
بِالْصَّدَا الْقَدِيمِ .. تَعْجِنُ فِي لِحْمِي كَسَائِكِ خَيْلِ صَدِئَةٍ، تُذِيبُ فِي  
سِدْمَتِهَا أَمْشَاجًا بَغِيضَةً .. تَسْتَجِيشُ دِمَاءَ السُّلَالَةِ! .. تَجُولُ -فِي النَّوْمِ- فِي  
الْمَدُنِ الْمَهْجُورَةِ وَشَوَاهِدِ الْقُبُورِ خَلْفَ الْهَضَابِ!

أَرَى الْحَيَاةَ فِي ابْتِسَامَةِ وَايِدٍ تَرَاهُ سَازِجًا آمِنًا يُلَاعِبُ وَحْشًا أَوْ حَوْلَهُ  
نَارٌ تَلْظَى! .. أَوْ تَفْتُحُ زَهْرَةً مِنْ أَكْمَامِهَا فِي قَفْرِ أَوْ حَقْلٍ مَجْرُودِ.



كَالطَّيْرِ الشَّارِدِ لَا أُنَيْسَ وَلَا وَايِفَ؛ وَكُلُّ تَجْمَعِ طَيْرٍ أَوْ وَحْشٍ بَلْ كُلُّ  
مَا حَوْلِي هُوَ عَدُوِّي وَصَدِيقِي! .. وَلِعَبَسِ الطِّينِ عَلَيَّ عَيْنِي وَسَفَّ الرِّيحِ  
أَرَى مَا حَوْلِي بَاهِتًا أَوْ بُهْتَانًا!!

وَكَالطَّيْرِ الشَّارِدِ لَا أَلْوِي عَلَيَّ شَيْءٍ .. لَا مُسْتَقَرَّ وَلَا بَيْتَ .. لَا أَعْرِفُ  
زَمَانًا وَلَا مَكَانًا .. تَتَسَاوَى كُلُّ الْأَزْمِنَةِ وَتُخْتَصِرُ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ، وَتَتَسَاوَى

(١) مُفْرَدُهَا: الصَّنَجُ؛ فُرْصٌ مُدَوَّرٌ مِنْ نَحَاسٍ يُضْرَبُ بِهِ عَلَيَّ آخَرَ فَيُحْدِثُ صَوْتًا ذَا رَيْنٍ.

وَأَيْضًا أَقْرَاصٌ مِنْ نَحَاسٍ صَغِيرَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ تُثَبَّتُ فِي إِطَارِ الدُّفِّ أَوْ تَوْضَعُ فِي أَصَابِعِ

كُلُّ الْأَمْكِنَةِ وَتُخْتَصِرُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ. بَيْنَ سَدِيمِ الْأَرْضِ يَمْضِي زَمَنِي،  
وَفِي قَيْدِ الطَّيْنِ يَمْضِي خَطْوِي .. وَطَوْقُ الْمَصِيرِ الْمَكْبَلِ يَلْتَفُّ مَرْمُومًا  
دَمِيمًا مَدْمُومًا!..

وَأَنْقَبُ فِي غَابَةِ الزَّمَانِ عَنِ أُرَاقِ خَضْرَاءِ أَوْ أَعْشَابِ لِأَزَالَتْ نَضْرَةَ؛  
فَلَا أَجِدُ إِلَّا نَبَاتَاتٍ ذَاوِبَةً وَأَشْجَارًا جَرْدَاءَ .. إِنَّهَا مُجْرَدٌ أَيَّامٍ جَرْدَاءَ تَنْتَظِرُ  
مَنْجَلَ حَصَادِ الْمَوْتِ!



وَيَلَاتُ مَرْبِعَةً مُفْرَعَةً بِحَجْمِ الرَّعْبِ تَتَضَخَّمُ، وَحُزْنٌ بِحَجْمِ وَخَقٍ  
الْكَابَاتِ، وَأَنْهَمَارُ الْأَحْزَانِ يَتَصَيَّرُ الصُّلُوعَ .. يَأْسُ رَصِينٌ بِأَشْوَاكِهِ يَتَسَرَّبُ  
رُؤِيدًا رُؤِيدًا إِلَى طَيَّاتِ نَفْسِي .. يَتَسَرَّبُ فِيهَا وَيُخَيِّمُ كَحَيَّةِ كَامِنَةٍ، تَدْعُو  
زَوْجَهُ حَجَرَ الْقُطُوبِ الْأَسْوَدِ أَنْ يَتَّخِذَنِي بَيْتًا وَسَكَنًا .. يَنْشُرُ ضَبَابَهُ الْوَسِخَ  
الْكَالِحَ - كَالثُّوبِ الْعَتِيقِ - الَّذِي يُعْمِي الْأَمْكِنَةَ مِنْ حَوْلِي .. يَطْوِينِي ..  
يُعَيِّنِي .. يَكْتُمُ أَنْفِي .. يُزْهِقُ رُوحِي، وَلَكِنْ .. تَدْفَعُهُ مِضَخَاتٌ مِنْ دَمِ  
الْأَمَلِ الْمُنْبَجِسِ مِنْ أَعْمَاقِ الْفَوَادِ الْحَرِيصِ عَلَيَّ الْحَيَاةِ.

تَتَقَادَفَنِي نَفْسِي بَيْنَ نُورٍ وَنَارٍ، عَلُوٌّ وَسُفُولٌ، فَكَيْفَ سَبِيلِي إِلَى عَشٍّ  
أَخْضَرَ فَوْقَ السَّحَابِ؛ حَيْثُ السُّكُونُ، وَحَيْثُ الْهُدُوءُ، وَ.. حَيْثُ  
الْحَقِيقَةُ؟! .. وَأَنْئِي لِمَكْبَلِ الطَّيْرِ أَنْ يَكُونَ فِي الْأُفُقِ؟! وَقَدْ هَوَتْ الْخُطُوبُ  
بِأَحْلَامِي إِلَى غِيَاهِبِ اللَّحُودِ، وَأَجْنِحَةَ الْمَوْنِ تَحُومُ مِنْ حَوْلِي!..

مَا أَجْمَلَ الْيَدَ الْحَايِنَةَ الَّتِي تَمْتَدُّ إِلَيَّ - الْآنَ - بِرَغْمِ كُلِّ وَسْخِي!!

وَهَلْ لِي أَنْ أَسْأَلَ: أَيْكُونُ هَذَا مَخَاضَ الْأَلَمِ وَالْأَوْجَاعِ؟.. وَهَلْ  
يَفِيقُ السَّكْرَانُ مِنْ كَثْرَةِ الضَّرَبَاتِ وَيَنْتَفِضُ؟.. وَهَلْ يَعُودُ الشَّارِدُ مِنْ  
شُرُودِهِ؟.. وَهَلْ يَثْبُتُ أَمَامَ أَنْوَاءِ<sup>(١)</sup> الْأَيَّامِ وَصُرُوفِ اللَّيَالِي؟



(١) مُفْرَدُهَا: نَوَاءٌ؛ وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ.